المكتبات في الحضارة الإسلامية (نشأتها وتطورها)

**أ.د.سعود عبد الجابر

ABSTRACT:

This research addneses the origination of the Libraries in Islamic civilization, its development & its role in building renaissance which it had a Significant impact in humanity civilization.

The research also shows different types of library's:

The Mosques libraries, the controversial library, the private library, the general library, the academic library, the school libraries and library & the hospital libraries. Furthermore, It illustrates the various affectation & adversely which it was exposed by however, there are many of unversed libraries decorates with valued Islamic manuscripts which is works its published & its vision the light.

عاش العرب في الجزيرة العربية قبل الإسلام وهم في شبه عزلة عن العالم الخارجي وكانت لهم تجارتهم واتصالهم المحدود بمن يحيط بهم. فكانوا على اتصال محدود بالروم والفرس والأحباش عن طريق التجارة. ولم تكن تلك الاتصالات من النوع الذي يؤثر في الثقافة والفكر. وكانت الأمية منتشرة ومتفشية بينهم. وكان جلُّ اهتمامِهم بأنسابِهم وأيامِهم ووقائعِهم. وكانت البلاغةُ والشعرُ أساسَ ثقافتهم. واهتموا بالسماع والحفظ في تناقل الأشعار والأخبار أكثر من اهتمامِهم بالتدوين والكتابة. ومن المؤكد أنهم عَرفَوا التدوين منذ عهود بعيدة وأنهم قد دونوا أخبارهَم إلا أن قلةَ المدوناتِ التي وصلت إلينا تعللُ لنا ندرةَ اهتمامِهم بالتدوين واقتصار الكتابة على فئةٍ محدودة منهم.

* كلية الآداب/قسم اللغة العربية ،جامعة الشرق الأوسط ،عمان- الأردن

ومن المعلوم أن العرب في الجاهلية لم تكن عندهم سجلاتٌ مكتوبـةٌ أو كتـبٌ أو مكتبـاتٌ. وكان بزوغُ فجَرِ الإسلام فاتحةَ عهدٍ جديدٍ للتدوين عند العرب فانتشرت الكتابةٌ مع دعـوة الإسلام انتشاراً واسعاً. وكانت أولُ آيةٍ نزلت على الرسول ﷺ تحثُ على القراءةِ والعلـمِ والتبصرِ بالكون'' اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ،خَلَقَ الْإِنْسَـانَ مِـنْ عَلَـقٍ ، اقْـرَأْ وَرَبُّـكَ الْأَكْـرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ''(5) [العلق: 1 - 5].

وكان القرآنُ الكريمُ أولَ كتابٍ سُجِّلِ بالعربية. وكان النبيُ ρ شديدَ الاهتمامِ بكتابة الوحي وإثباته مسجلاً ومحفوظاً كلما نزل وقد كانت عمليةُ إثبات النص تتم بالوسيلتين معاً أو بإحداهما. «وقد كان يُلقِّن حُفَاظَ القرآنِ بنفسه. ويدعُ الكتابةَ لمن يقومون بـمُهمَتها ممن يتقنون فنهَا. وكان زيد بن ثابت يكتب له. والذين يعرفون القراءة والكتابة من أصحاب الرسول الكريم الأُول: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي. وقد أحصى كتّابُ الإسلام والحضارة العربية اثنين وأربعين كاتباً كانوا يقومون بمهمة تدوين القرآن وكتابة الرسائل وغير ذلك»[1].

وبدأ التدوينُ في زمن الخليفةِ عمر بن الخطاب عندما أنشأَ ديوانَ الخراج. ووجدت السجلاتُ للاستعمال الرسمي. وفي عصر بني أمية وضعت البذورُ الأولى للمكتبات الإسلامية، ففي زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز بدأ تدوين الحديث، ثم أخذ المسلمون في تسجيل تاريخ الرسول الكريم وأخبار الإسلام والغزوات، ثم تتابع التأليف في مختلف المجالات. ووضعت البذور الأولى للمكتبات الإسلامية في العصر الأموي وأول بيت ذكر بيت الحكمة يرد مرتبطاً بمعاوية بن أبي سفيان ومنسوباً إليه. وجاء في كتاب مروج الذهب للمسعودي[2] أن معاوية «كان ينامُ ثلثَ الليل ثم يقومُ فيقعد، ويحضر الدفاتر فيها سيرَ الملوك وأخبارُ الحروب والمكايد، فيقرأُ ذلك عليه غلمانٌ له مرتبون وقد وكِّلوا بحفظها وقراءتها». وكان معاوية قد استقدم شَرِيَّة الجرهمي ت 67 وهو أول من صنف الكتب من العرب، فكان معاوية يسأله عن أخبار العرب الأقدمين وملوكهم فيحدثه، فأمر معاوية بتدوين أخباره فأملى كتابين أولهما كتاب «الملوك وأخبار الماضيين، والثاني

كتاب الأمثال[3]. وتأسست في هذا العصر أولُ مكتبةٍ أكاديميةٍ على يدِ خالد بن يزيد بن معاوية المتوفي عام 85هـ «إذ أوجد مركزاً للنقل والتعريب فبدأت الحركة العلمية وتم النقلُ من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية تحت إشرافه. ولقد كان من اهتماماته الكثيرة الفلك، إذ زود المكتبة بمواد فلكية إلى جانب الكتب»[4].

ويذكر ابن النديم أن «خالد بن يزيد بن معاوية كان خطيباً شاعراً فصيحاً، ذا رأي، وهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم، وكتب الكيمياء»[5]. فلقد أمر بإحضار فلاسفة يونانيين من مصر، ممن أتقنوا اللغة العربية، وأمرهم بنقل الكتب اليونانية والقبطية إلى العربية. ولقد كان هذا أولُ نقل في الإسلام من لغة إلى لغة.

ونخرج من هذا إلى أن هذه الكتب التي ترجمت والكتب التي كان يُعْنَى بها من العلوم العربية والدينية، وهي كتب التفسير والحديث والشعر والأخبار، كل هذه الكتب العقلية والنقلية والكتب التي ورثها عن جده معاوية كانت النواة لخزانة خالد بن زيد، وهي أول خزانة كتب في الإسلام.

وفي العصر العباسي ازدهر فنُ التدوين. ووضعت مسانيد الحديث. وألفت الكتب في كل علم وفن. وظهرت صنعة الوراقة التي تشمل نسخَ الكتبِ وتجليدِها وبيعِها، وبيع الورقُ ومختلفُ أدواتِ الكتابة. وازدهرت صناعةُ الورقِ التي تعلمها العرب من الصينيين، ومنهم عَرَفها الأوربيون. فكانت من العوامل الأساسية لنهضتهم الحديثة.

وكان في بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وأشبيلية وغرناطة وغيرها من حواضر البلاد الإسلامية المئات من دكاكين الوراقين فانتشرت المكتبات، وعمت مختلفَ أرجاءِ العالم الإسلامي نتيجةً لظهور صناعةِ الورقِ وانتشار مصانعِه في جميع أقطارِ الدولة الإسلامية، هذا بالإضافة إلى حركة الوراقين النشطة وحركة الترجمة القوية التي بدأ الاهتمام بها منذ عهد الرشيد وأتت أُكُلَهَا في عهد المأمون ولعل حنين بن إسحاق من أشهر المترجمين في العصر العباسي «ولقد اختاره الخليفة المتوكل طبيباً خاصاً له ومديراً لمدرسة الترجمة التي أنشأها»[6].

وبهذا حمى العرب آثار القدماء العلمية من الضياع والزوال فكثير من المخطوطات لولا العرب لما عرفنا اليوم عنها شيئاً، بالإضافة إلى اهتمام الخلفاء العباسيين بالحركة العلمية والأدبية وشهد ذلك العصر حضارةً زاهرة وكثرت المؤلفات في مختلف العلوم، قال ابن خلدون في مقدمته: «وطما بحر العمران والحضارة في الدولة الإسلامية في كل قطر، وعظم الملك، ونفقت أسواق العلوم وانتسخت الكتب، وأجيد كتابتها وتجليدها، وملئت بها القصور والخزائن»[7].

ولا شك أن هذه الحركة الأدبية والعلمية النشطة في مجال التأليف من العوامل الأساسية لبروز المكتبات الضخمة العديدة في مختلف الأقطار الإسلامية، وتنوعها وتعدد صنوفها وأنواعها. فتنوعت فكان منها مكتباتُ المساجدِ والجوامعِ، والمكتباتُ الخلافيةٌ، والمكتباتُ الخاصة، والمكتباتُ العامة، والمكتباتُ الأكاديمية، ومكتباتُ المدارس، ومكتباتُ المشافي.

مكتبات المساجد والجوامع:

لقد كانت المساجدُ بالإضافة لكونها أماكنَ للعبادة مراكزَ ثقافيةَ يلتقي بها المسلمون. وأماكنْ للدراسة ينهلون منها العلمَ والمعرفةَ. ولذلك ظهرت المكتباتُ في المساجد منذ أقدمِ عصور الإسلامِ، وجرت العادةُ أن يُوْدِع الناس عدداً من نسخ القرآن الكريم وغيرهِ من الكتب الدينيةِ كوقفٍ من أجل المطالعين والمصلين. واعتاد الناسُ على إهداء المساجدِ مكتباتهِم الخاصةْ كوقفٍ منفردٍ في خزانةٍ بأسمائهم. وكان لهذه الخزائنْ مشرفون على شؤونها أغْلَبُهم من العلماءِ. ويبدو أن هذا كان أمراً شائعاً في تلك العصور حتى إن بعضَ الخلفاء والأمراءِ والعلماء والأثرياء كانوا يوقفون أشياءَ كثيرةً على المساجدِ ومن ذلك الكتب. وذكر المقريزي أن الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي قد أنزل إلى الجامع العتيق «ألفاً ومائتين وثمانية وتسعين مصحفاً ما بين ختمات وربعات فيها ما هو مكتوب كله بالذهب، ومكن الناس من القراءة فيها»[8].

وكانت هذه المكتبات «لا تحتوي كتباً دينية فقط، وإنما بالإضافة إليها كتباً فلسفية وعلمية.

وقد كانت تدرسُ في المساجدِ جميعُ أنواع العلومِ باستثناء الطب»[9]. ولذلك ازدهرت الحياة العقلية العلمية في بعض المساجد.

وكانت تعقد بها حلقاتٌ للدراسةِ والمناظرة كما كان يجري في مساجد الكوفة، وجامع بني أمية في دمشق، وفي جوامع مكة والمدينة، وفي جامع المنصور في بغداد، وفي الجامع الأزهر في القاهرة، وجامع الزيتونة في تونس، وفي جوامع طليطلة وغرناطة وأشبيلية وقرطبة في الأندلس. ولقد كان للحلقات التي تعقد في جامع طليطلة شُهْرتُها وأهميُتها. جذبت إليها الطلاب المسلمين والنصارى على السواء، حيث كان يقصْدُها الطلابُ من جميع أنحاء أوروبا من أجل التعلم والحصول على المعرفة.

ويمكن القولْ بشكل عام: إن مكتبات المساجد قد انتشرت بشكل واسع في المساجد الإسلامية المشهورة كافة.

المكتبات الخلافية:

اهتم الخلفاء بالجانب الثقافي اهتماماً كبيراً. وكانت مكتباتهُم عبارةً عن منتدياتٍ للأدباءِ والشعراءِ والعلماءِ. وجعلوها حلقاتٍ للمناظرةِ والمحاضراتِ والعلومِ المختلفة. وازدهرت هذه المكتبات بوجود الخليفةِ أو الأميرِ المحبِ للعلم والأدب والراغب في الكتاب وأهلهِ. وبعضُ هذه المكتباتْ كان مباحاً للناس جميعاً وبعْضُها الآخر كان مقصوراً على استعمال الخليفةِ أو الأمير وحاشيِته. ومن أشهر هذه المكتبات في العصر العباسي مكتبةُ الخليفةِ أبي جعفر المنصور ومكتبةُ الرشيدِ والمأمونِ والمستنصر بالله والناصرِ لدين الله والمستعصمِ بالله آخر الخلفاء العباسيين الذي أنشأ خزانتين للكتب نقل إليهما من نفائس الكتب، وجعل المتولى على الأولى شخصاً اسمه صدر الدين بن التيار، وجعل المتولى على الثانية شخصاً اسمه عبد المؤمن بن فاخر الأرموري. وكان الخليفة يجلس بعض الأحيان في الخزانتين بالتناوب[10].

ومن أشهرِ المكتبات في ذلك العصر مكتبةُ الأميرِ سيف الدولة الحمداني في حلب الذي أنشأ مكتبةً كبرى جعل عليها قيمِّين الشاعرين أبي بكر محمد بن هاشم وأبي عثمان سعيد

بن هاشم. وهما أخوان[11]. ومكتبةُ عَضُد الدولة البوبهي الذي أسسَ في شيراز مقرَ حكمه دار كتبٍ فخمةٍ وجمع فيها من الكتب ما ليس له نظير. ويذكر المقدسي أن دارَ الكتب هذه عليها وكيلٌ وخازنٌ ومشرفُ من عدول البلد. ولم يبق كتابٌ صنف إلى وقته من أنواع العلوم كلِّها إلا حصله منها. وهي أزج طويل في صفَّة كبيرة فيه خزائن من كل وجه. وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتاً طولها قامة إلى عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوق عليها أبواب تنحدر من فوق، والدفاتر منضدة على الرفوف، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامي الكتب»[12].

ومن المكتبات المشهورة في ذلك العصر مكتبة أسامة بن منقذ فهو يتقبل بصبر المؤمن ما أصابه على يد الصليبيين الذين سلبوا كل ما يملك أثناء عودة أبنائه وأبناء أخيه من مصر إلى بلاد الشام بحراً، ونقضوا العهد الذي منحوه لنور الدين زنكي بعدم الاعتداء عليهم فهو يكتب في كتاب الاعتبار «إن سلامة أولادي وأبناء أخي قد خففت من آلام فقدي لكل ممتلكاتي، ولكن خسارتي لكتبي آلمتني ألماً شديداً «لقد كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة، فإن ذهابها حزازة في نفسي ما عشت»[13].

ولم يكن أسامة الذي كتب هذا القول أديباً فقط، بل كان فارساً محارباً ورجل سياسة مقدراً للأدب والعلم.

أما الخلفاء الفاطميون فلقد اهتموا بالمكتبات اهتماماً كبيراً فكان من أشهر خزائن القصور الفاطمية خزانةُ الكتب[14]. واتخذوا منها أداة لنشر مبادئهِم عن طريق التعليمِ والإقناعِ والتوجيهِ وبثِ الأفكار. «ولعل أول من اهتم بالعلم على مقياس واسع هو المعزُ الذي بني القاهرةَ والجامعَ الأزهرْ. ثم خلفه ابنهُ العزيزُ الذي توسع كلَ التوسع في ميدان العلمِ والتعلم. فأنشأ داراً للعلم بجوار الجامع الأزهر سنة 378هـ، وجعلها لخمسة وثلاثين من العلماء. وكذلك اهتم اهتماماً بالغاً بالكتب وتفنن في جمعها والحصول عليها»[15].

وقد ذكر المقريزي عن المسبحي مؤرخ الدولة الفاطمية والذي عاش في كنفها أنه كان بخزانة العزيز نيف وثلاثون نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد، وما ينيف على

عشرين نسخة من تاريخ الطبري، ومائة نسخة من الجمهرة لابن دريد ثم قال: إنه كان في سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة من جملتها خزانة فيها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة (يعني الفلسفة والطب والألهيات وما إليها)[16].

أما في الأندلس فلقد اهتم الخلفاء والأمراء اهتماماً عظيماً بالمكتبات والكتب واعتنوا بالأدب والعلم حتى أضحت الأندلس مركزاً من مراكز الثقافة يفد إليه العلماء والأدباء من كل مكان. وأغلب حكام الأندلس كانوا شغوفين بالعلم والأدب مهتمين بالمعرفة والثقافة فأسسوا المكتبات الكثيرة ولعل من أشهر الخلفاء الأندلسيين الذين اهتموا بالعلوم والكتب الخليفة الحكم الثاني والذي أنشأ مكتبة عظيمة في قرطبة ذكرها المقري فقال: «وقال بعض المؤرخين في حق الحكم أنه كان حسن السيرة مكرماً للقادمين عليه، جمع من الكتب ما لا يحد ولا يوصف كثرة ونفاسة حتى قيل إنها كانت أربعمائة ألف مجلد، وأنهم لما نقولها أقاموا ستة أشهر في نقلها.... وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي باذلاً فيها ما أمكنه من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه»[17].

المكتبات الخاصة:

انتشرت المكتبات الخاصة في جميع أرجاء العالم الإسلامي. وحرص العظماءُ والوزراءُ والأغنياءُ على اقتناء مجموعاتٍ كبيرةٍ من الكتب من أموالهم الخاصة.

وكان بعضُ أصحابِ هذه المكتبات يُبِيحُها للناس جميعاً كما فعل ابن المنجم وبعضُهم يسمح بالإطلاع فيها للباحثينْ والعلماءْ والأصدقاءِ. ولقد قال آدم متز إن علي بن يحيى المنجم وكان ممن جالس الخلفاء قد عَمَل «حوالي منتصف القرن الثالث الهجري خزانةَ كتبٍ عظيمةٍ في ضيعته، وسماها خزانةَ الحكمةِ، وكان يقصْدُها الناسُ من كل بلدٍ، فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوفَ العلم والكتبُ مبذولةٌ لهم والصيانةٌ مشتملةٌ عليهم، والنفقةُ في ذلك من مالِ علي بن يحيى»[18].

ومن أبرز المكتبات الخاصة مكتبةُ خالد بن يزيد بن معاوية التي مر ذكرُها.

ومكتبت الجاحظ الذي كان من أكبرِ عشاقِ الكتب المولعين بها ولعاً شديداً في القرن الثالث الهجري... حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيتُ فيها للنظر بها. ومكتبةُ الفتحِ بن خاقان الذي كان من كبارِ رجالِ دار الخلافةِ في زمن المتوكل. ومكتبة إسماعيل بن إسحاق القاضي[19].

وكذلك ممن جمع خزانةَ كتبٍ قيمةٍ واهتم بها كلُّ الاهتمام الكِنْدي الفيلسوف ذلك أن فيلسوف العرب اهتم بجمع كتب الحكمةِ والفلسفةِ اليونانية وعلوم الأوائل[20].

وابنُ العميد وزيرُ البهوبهيين الذي كان في مكتبته كلُّ علم وكلُّ نوعٍ من أنواع الحِكمِ والآداب. وكان ابن مسكويه في بعض الأوقات خازناً لمكتبته[21]. وكان كذلك للصاحب بن عباد مكتبةٌ ضخمةٌ حتى قيل إنه لما استدعاه السلطان نوح بن منصور الساماني ليوليه وزارته، كان مما اعتذر به أن عنده من كتب العلم ما يحمل على أربعمائة جمل أو أكثر. وكان فهرس كتبه يقع في عشرة مجلدات[22].

وقد أسس جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي 240- 323هـ «دار علم قد جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم، وقفاً على كل طالبٍ للعلم، لا يمنع أحداً من دخولها[23].

ولقد كان الاهتمام بالمكتبات الخاصة في مختلف أرجاء العالم الإسلامي. وقد كان في سوريا ومصر اهتمامٌ زائدٌ بالمكتبات الخاصة. ولقد كان الوزيرٌ جمالُ الدين القفطي المتوفي سنة 646هـ والذي كان وزيراً في حلب محباً للعلم والكتب، وجمع من الكتب ما لا يوصف. وقُصِد بها من الآفاق. وكان لا يحب من الدنيا سواها. ولم يكن له دار ولا زوجة، وأوصى بكتبه للناصر صاحب حلب[24].

وفي مصر وجدت مكتبات خاصة جمعها بعضٌ الوزراءِ والأطباءِ والأفرادِ، فقد أوجد يعقوبُ بن كلس وزيرُ العزيزِ بالله الفاطمي خزانةً لنفسه. وكان محباً للعلم يجمع حوله العلماءً والأدباء[25].

أما في الأندلس فلقد اهتم الأندلسيون باقتناء الكتب وزخرفتها. وبلغت المكتبات لديهم درجة كبيرة من التقدم، نتيجة للحضارة الزاهرة التي أوجدها الإسلام. فكان أغلبُ الناس

قادرين على القراءة والكتابة وولعوا باقتناء الكتب والمكتبات والعناية بها «ولقد جمع ابن حزم المؤلف المشهور مكتبةً كبرى ولكنها احترقت»[26].

وكان القاضي أبو المطرف (المتوفي عام 402هـ) قاضي الجماعة بقرطبة يملك مكتبة قيمة، وقد جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس وكان له ستة وراقين ينسخون له دائماً[27].

ولا بد من الإشارة إلى أن هذا النشاط العلمي لم يقتصر على الرجال، بل شمل النساء، وكثرت المتعلمات والمتخصصات حتى إنه أُجْري أحصاءٌ في أحياءِ قرطبة التي تبلغ واحداً وعشرين حياً أيام ازدهار الخلافة، فوجد أن «مائة وسبعين امرأة» يُجِدْن الخطَّ الكوفي ويكتبن به المصاحف. وقد كان لعائشة القرطبية (- 400هـ) أحدى كاتبات المصاحف المشهورات خزانةٌ كتب كبيرة[28].

ويستفاد مما سبق أنه كان هناك مكتباتٌ خاصةٌ كثيرةٌ منتشرةٌ في جميع الأقطار الإسلامية. وأن العلماءَ والأدباءَ والوزراءَ والأفرادَ قد تنافسوا على اقتنائها.

المكتبات العامة:

انتشرت المكتبات العامة في جميع أنحاء العالم الإسلامي من حدود الصين والهند شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً وشمالاً. وكانت المكتبات العامة مباحة للجميع بل كثيراً ما كان بعَضُها يقدمُ الورقَ وأدوات الكتابةِ والحبرِ للقراء. كما كان في قسم كبيرٍ منها مُرْشدون يساعدون القراء في إيجاد المصادر والكتب التي يبحثون عنها[29].

ولقد نمت في بغداد نمواً كبيراً، ففي عام 891م يحصي مسافر عدد دور الكتب العامة في بغداد بأكثر من مئة، وبدأت كل مدينة تبني لها داراً للكتب يستطيع عمرو أو زيد من الناس استعارة ما يشاء منها، وأن يجلس في قاعات المطالعة ليقرأ ما يريد، كما ويجتمع فيها المترجمون والمؤلفون في قاعات خصصت لهم يتجادلون ويتناقشون كما يحدث اليوم في أرقى الأندية الأدبية[30].

ومن المكتبات العامة الشهيرة مكتبة أبو نصر سابور بن أردشير وزيرُ بهاء الدولة البويهي فلقد أسسها سنة 383هـ في الكرخ غربي بغداد وسماها دار العلم وزودها بكتب كثيرة زادت على عشرة آلاف كتاب في مختلف العلوم. وكانت هذه المكتبة مركزاً ثقافياً هاماً يلتقي فيه العلماء والباحثون للقراءة والمطالعة والمناظرة[31]. وكان أبو العلاء المعري يكثر التردد عليها عندما كان في بغداد[32].

وكذلك اتخذ الشريف الرضي (المتوفى عام 406هـ) نقيبُ العلويين والشاعرُ المشهورُ داراً سماها دارَ العلم، وفتحها لطلبةِ العلم وعينَّ لهم جميعَ ما يحتاجون وقد عمل القاضي ابنُ حبان (المتوفى عام 354هـ) في مدينة نيسابور داراً للعلم وخزانةَ كتب ومساكنَ للغرباء الذين يطلبون العلم وأجرى لهم الأرزاقَ. ولم تكن الكتبُ تعارُ خارج الخزانة[33].

وقد أنشأ أبو علي بن سوّار الكاتب أحد رجال عضد الدولة (المتوفى عام 372هـ) دار كتب في مدينة رام هرمز على شاطئ بحر فارس، كما بنى داراً أخرى بالبصرة، وجعل فيهما إجراء على من قصدهما ولزم القراءة والنسخ فيهما، وكان في الأولى منهما أبشيخ يُدرس عليه علم الكلام على مذهب المعتزلة[34].

ولقد كان من أشهر المكتبات العامةٍ في بلاد الشام مكتبةُ بني عمار في طرابلس الشام التي أنشأها بنو عمار الذين حكموا قسماً من الساحل السوري في القرن الخامس الهجري. واستمروا في حكمه حتى الحروب الصليبية. ولقد اهتموا بها. اهتماماً كبيراً «وكان لهم وكلاء يجوبون أقطار الإسلام المعمورة بحثاً عن الكتب والمخطوطات النادرة، وكان فيها النساخُ يعملون بشكل مستمر ليلاً نهاراً. فقد ذُكِر أن عددَ النساخ كان أكثرَ من مائةٍ وثمانين ناسخاً يتناوبون في الليل والنهار»[35].

وكانت مقتنياتُ هذه المكتبةْ من أجملِ الكتب المجلدةِ والمزخرفةِ والمحلاةِ بالذهب والفضة بالخطوط المنسوبة لأشهر الخطاطين. وقد حوت جميعَ أنواعِ وفروعِ المعرفة الإنسانية من طبٍ وفلكٍ وتنجيمٍ وفلسفةٍ وأدبٍ وتاريخَ وتفاسير.

ولقد أحرق الصليبيون هذه المكتبة الثمينة بكل ما فيها من مقتنيات قيمةٍ عندما احتلوا

طرابلس سنة 503هـ/1009م، بعد حصار دام عشر سنوات.

ولقد انتشرت المكتبات العامة أيضاً في مصرَ والأندلس ومختلف أرجاء الدولة الإسلامية.

المكتبات الأكاديمية:

إن المكتباتِ الأكاديمية من أشهر المكتباتِ في البلاد الإسلامية. وهي مكتباتٌ متخصصةٌ للبحث والدرس. وقد ظهرت في القرن الثاني الهجري. وكان في هذه المكتبات «علماءُ أجلاءُ يحسنون اللغاتِ الأعجمية واللغة العربية، يرجعون إليهم في النقل، ويعقدون المناظراتِ العلمية التي يستفيدُ منها روادُ هذه الدور. دورُ الحكمة»[36].

وأشهرُ المكتباتِ الأكاديمية في ذلك العصر بيتُ الحكمة. وهو أولُ بيت حكمةٍ عرف عند المسلمين. كما كان أعظمُها شأناً لما يحويه من الكتب النفيسةِ في مختلف ألوان المعرفة وبمختلف اللغات. ووضع نواةَ هذه الدار في بغداد أبو جعفر المنصور وعندما كثرت الكتب المترجمة والمؤلفة في عهد الرشيد شيد بيتَ الحكمة. وعظَمُ شأنهُا في خلافة المأمون حيث أمدَّها بالمؤلفات الكثيرةِ والدواوينِ الضخمة، حتى صارت من أكبرِ خزائن الكتبِ فكان بيتُ الحكمة من أعظم المعاهد العلمية العالية وفيه أجلة العلماء والمفكرين ويشتغل على أيديهم الكثيرون من طالبي العلم والمعرفة، فهو معهدٌ عال للدراساتِ العلمية والنقلِ والبحث»[37].

ولقد أصبح بيتُ الحكمة زمنَ المأمون أكاديميةً بالمعنى الدقيق للكلمة فهي تحوي أماكنَ للدرس، وأخرى لخزنِ الكتب. وأماكنَ للترجمةِ والتأليف إلى جانب الرصدِ الفلكي والنشاطِ الفلكي[38].

وأسس الفاطميون في القاهرة دار الحكمة، وجمعوا فيها مختلف أنواع الكتب في العلوم والفنون والآداب. وكانت مركزاً أكاديمياً للبحث والدرس.

وقد أسس الحاكم بأمر الله دار الحكمة سنة 395هـ. وقد كانت هذه الدارُ من أعظم

الخزائن التي عَرَفها العالم الإسلامي فيما مضى ومن أكثرها جمعاً للكتب النفيسة في جميع المجالات. «وذكروا أن فيها مليوناً وستمائةَ ألف مجلد، فيها الخطوط المنسوبة، والكتب المزوقة، فكانت مرجعَ القومِ في الاستفادة»[39]. وكانت تسمى هذه الدار أيضاً دار العلم، وصفها المسبّحي فقال: «فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة وجلس فيها الفقهاء، وحملت إليها الكتب من خزائن القصور المعمورة، ودخل الناس إليها.

ونسخ كلُ من التمس نسخَ شيءٍ مما فيها ما التمسه، وكذلك من رأى قراءةَ شيءٍ مما فيها، وجلس فيها القراءُ والمنجمون وأصحابُ النحو واللغةِ والأطباء، بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها الستور، وأقيم قُوّامٌ وخدامٌ وفراشون وغُيرهُم وسموا بخدمتها.

وحصل في هذه الدار من خزائنِ أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائرِ العلوم والآدابِ والخطوط المنسوبةِ ما لم يُر مِثْلُه مجتمعاً لأحدٍ قط من الملوك، وأباح ذلك كلَّه لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثرُ قراءة الكتب والنظر فيها.. وحضرَها الناس على طبقاتهم؛ فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ؛ ومنهم من يحضر للتعلم. وجعل فيها ما يحتاج الناسُ إليه من الحبرِ والأقلام والورقِ والمحابر»[40].

فالمكتبة بهذا الوصف مكتبة قيمة، ومدرسة تُدَرَّس فيها العلومُ المختلفةُ. وقاعةُ مناظراتٍ. ولقد كانت هذه المكتبةُ مصنفةً ومرتبةً بحيث تقدم الخدمة للقراء بسهولة ويسر.

مكتبات المدارس:

بلغت الحضارة الإسلامية في العصر العباسي قمة الازدهار يوم اهتمت بإنشاء المدارس من أجل التعليم فيها. وألحقت بهذه المدارس المكتبات. وقلما خلت مدرسة من المدارس من مكتبة كبيرة تتبعها. وقبل نشوء المدارس كانت المساجدُ المكان الطبيعي للتعليم. كما كانت الجوامعُ والكتاتيبُ تقوم بهذه المهمة.

وعُرفت المدارسُ الإسلامية منذ القرن الرابع للهجرة «وأولُ من حُفِظ عنه أنه بنى مدرسةَ في الإسلام أهل نيسابور فبنيت بها المدرسة البيهقية وبنى بها أيضاً الأمير نصرُ بن سبكتكين مدرسةً وبنى بها أخو السلطان محمود بن سبكتكين مدرسةً وبنى أيضاً المدرسة السعيدية، وبنى بها أيضاً مدرسة رابعة. وأشهر ما بني في القديم المدرسةُ النظاميةُ ببغداد لأنها أولُ مدرسةٍ قُررّ بها للفقهاء معاليمُ. وهي منسوبةٌ إلى الوزير نظِام الملك... وشُرع في بنائها في سنة سبعة وخمسين وأربعمائة وفرغت في ذي القعدة سنة تسع وخمسين وأربعمائة»[41]. وأنشأ نظام الملك وزيرُ السلاجقة في النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة المدارس الكثيرة، وعُرفت باسم المدارس النظاميةِ نسبة إليه. ونظاميةُ بغداد أولُ المدارس التي أنشأها وأهمهُا. ولقد أُلحقت بها مكتبةٌ غنيةٌ زودَّها بالكتبِ النادرة والثمينة.

ولقد شغل منصبَ أمينِ المكتبة من هم في القمةِ علماً وأدباً، فالأسفراييني أولُ خازنٍ لمكتبة النظامية، ويوصف بأنه شاعر أديب، وبعده جاء محمد بن أحمد الأبيوردي[42]. وقد أوقف الكثير من العلماء مكتباتهِم الخاصة على النظامية ومن هؤلاء محب الدين بن النجارِ صاحبِ كتابِ ذيلِ تاريخ بغداد الذي أوقف خزانتين من الكتب للنظامية.

ومن مكتبات المدارس المشهورة مكتبة المدرسة المستنصرية التي شيدها المستنصر بالله الخليفة السابع والعشرون من خلفاء بني العباس. وشيدت هذه المدرسة سنة 630هـ في بغداد. وكانت في هذه المدرسة خزانةُ كتبٍ حافلةٍ بمختلف المصنفات القيمة.

«وكان في المدرسة موظفون يعنون بأمرها ويشرفون على جميع ما يتصل بالكتب وهم ثلاثة أصناف: الخازن، والمشرف، والمناول، إلى جانب البوابين والفراشيين المسؤولين على الحراسة والتنظيف»[43].

وكان في دمشق نحو ثلاثين مدرسةْ في القرن الخامس من الهجرة. ويُدرّسُ في تلك المدارس الأئمةُ والأعلام. ومن أشهر مدارسها دارُ الحديث النورية، والنوريةُ الكبرى, والصلاحيةُ والعادليةُ والظاهرية وغيْرُها[44].

أما في مصر فلقد كانت فيها مدارسٌ كثيرة. كالمدرسة الكاملية والصالحية والصاحبية والفاضلية نسبة إلى القاضي الفاضل وغيرها[45].

والجدير بالذكر أن نور الدين زنكي بن عماد الدين زنكي مؤسس الدولة الزنكية في بلاد الشام كان من أكثر الحكام في ذلك العصر حرصاً على إنشاء المدارس والمكتبات، كما أن صلاح الدين سار على خطاه من حيث الاهتمام بالمدراس والمكتبات ففي كلِّ مدينة حررها من الصليبيين كان يحرص على إنشاء المدارس والمكتبات العامرة بشتى صنوف المعرفة. وكذلك الأمر في مصر حيث كانت جزءاً من دولته.

هذا وقد اشتهرت عدةُ مدراسْ في القدسِ وحلبْ وحماةٌ وغيرها. وقد ألحقت في كل مدرسة من هذه المدارس مكتبةٌ ضخمةٌ قيمة.

ومن المكتبات المدرسية المشهورة في الحضارة الإسلامية مدرسة سمرقند ومدرسة مسعود بك في بخارى، وكانت كلتا المدرسين من أعظم المدارس تشتمل كل منهما على مكتبة ثرية، وأحرقها المغول سنة 664هـ عندما تولى أباقا شؤون المملكة المغولية خلفاً لأبيه هولاكو[46].

مكتبات المشافي:

ظهرت مكتبات المشافي والمارستانات نتيجة للاهتمام بالمرضى والعناية بهم.

وذُكر أن من أوائل المهتمين بهذا الأمر الوليد بن عبد الملك فهو «أولُ من بنى المارستان في الإسلام ودار المرضى... وهو أيضاً أولُ من عمل دار الضيافةِ في سنة ثمان وثمانين. وجعل في المارستان الأطباءَ وأجرى لهم الأرزاقَ. وأمر بحبس المجذومين لئلا يخرجوا وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق»[47].

ومع تقدم الحضارة كثرت المشافي. وقد استعمل العرب لفظة (مارستان) أو (بيمارستان) ومعناها بيتُ المرضى.

وألحقت بهذه المشافي مكتباتٌ حافلةٌ بالكتب القيمةِ لأن المشفى لم يكن مكاناً للتطبيب

والتمريض فقط، وإنما مكاناً أيضاً لتعليم طلاب الطبِّ الأمراضَ وطرقَ معالجتها.

ومن أشهر المشافي التي ضمت مكتباتٍ عامرةٍ بالكتب المتنوعة وخصوصاً الطبية مشفى عَضُد الدولة البويهي في بغداد، والمشفى النوري في دمشق، ومشفى قلاوون في القاهرة والتي قيل إن عدد كتبها بلغ مائة ألف مجلد أخذت أكثرها من دار الحكمة[48].

وهكذا نرى مما سبق أن المكتبات كانت شائعة في جميع أرجاء العالم الإسلامي وأنها وجدت لدى العرب والمسلمين بمختلف أنواعها. وكانت غنيةً في محتوياتها وتقدمُ شتى ألوانِ المعرفةِ للقراء. والجدير بالذكر أن كتب المكتبات هذه التي برزت في الحضارة الإسلامية لم تكن مطبوعة على آلة بل نسخت باليد وبذل فيها كاتبوها مجهوداً مضنياً دام أشهراً طويلة، بل وأحياناً بضع سنوات.

وفتحت اللهفة على اقتناء الكتب الباب أمام العديد من العمال المهرة فأصبح النساخ والخطاطون فنانين مهرة في فنهم ووظفت كل مكتبة عدداً من هؤلاء، وانتشر منتجو الورق في سمرقند وبغداد ودمشق وطرابلس وفي فلسطين والأندلس وتبعهم المجلدون.. يعدون غلافات رائعة للكتب كما كثر تجار الكتب[49]. ولكن مع مضي الزمان دب الضعفُ في بعض أجزاءِ الدولة الإسلامية. وأخذت المكتبات بالتقهقر نتيجة لعوامل التفككِ والتمزق التي أخذت تنهشُ في جسد الدولة، بسبب الفتن والمشكلات الداخلية، بالإضافة إلى المحن الكثيرة التي لحقت بالأمة نتيجةً للغزو الصليبي الذي ألحق الدمار والخراب في المدن والقرى. وأباد معالم الحضارة فيها، كما أن التتار لم يقلوا عنهم وحشيةً فلقد كان سقوط بغداد سنة 656هـ نذيرَ شؤم للتراث فقد «روي أن مياه دجلة جرت سوداءَ من كثرة ما ألقي فيها من الكتبِ والصحائف»[50]. وكذلك واجه هذا التراثُ محنةً فظيعة في الأندلس فلقد أحرقت كثيرٌ من المكتبات فيها ومن ضمنها مكتباتُ غرناطةْ التي سقطت سنة 1492م، والتي يفوق عددُ المخطوطات التي أحرقت فيها وحدها كلَّ تصورٍ. وأكثرُ الباحثين حذراً... يقدرونها بثمانين ألفا[51].

ومع كل هذه المصائب والمحن فلقد بقيت لنا ثروةُ علميةٌ ضخمة من المحفوظات

الإسلامية تتحدث عما كان عليه العربُ والمسلمون من تقدم علمي ونضج فكري. وإن كثيراً من المكتبات العالمية حتى هذا اليوم تزخر بالمخطوطات الإسلامية التي تنتظر من يعمل على نشرها ورؤيتها للنور.

الملخص

يتناول هذا البحث نشأة المكتبات في الحضارة الإسلامية وتطورها ودورها في بناء نهضة زاهرة كان لها أثر كبير في مسيرة الحضارة الإنسانية كما يبين مخلف أنواعها وهي:

مكتبات المساجد والجوامع والمكتبات الخلافية والمكتبات الخاصة والمكتبات العامة والمكتبات الأكاديمية ومكتبات المدارس ومكتبات المشافي. كما يوضح شتى المحن والمصائب التي تعرضت لها وبالرغم من ذلك فإن كثيراً من المكتبات العالمية تزخر بالمخطوطات الإسلامية القيمة التي تنظر من يعمل على نشرها ورؤيتها النور.

الهوامش

([1]) تاريخ الكتاب الإسلام. د. محمود عباس حمودة. ص: 104. دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة 1979م.

([2]) مروج الذهب: 2: 72.

([3]) الفهرست: ص: 89، ومعجم الأدباء: 5: 15.

([4]) مكتبات العراق. ميري فتوحي. ص: 59. وزارة الثقافة والإعلام في الجمهورية العراقية، 1986م.

([5]) الفهرست. ابن النديم: ص: 497. المكتبة التجارية، مصر.

([6]) شمس العرب تسطع على الغرب، ص: 384.

([7]) مقدمة ابن خلدون، ص: 42.

([8]) كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية. تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي. 1: 250. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة.

([9]) المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرها. د. محمد ماهر حمادة. ص 83. مؤسسة الرسالة، بيروت،1996م.

([10]) الفخري في الآداب السلطانية، ابن القفطي، ص269.

([11]) ظهر الإسلام. أحمد أمين. 1: 184، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1978.

([12]) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. شمس الدين أبو عبد الله محمد المقدسي. تحقيق مارجوليوث، ص: 449. لندن، إبريل، 1906م.

([13]) كتب الاعتبار، ص: 57 – 58.

([14]) ظهر الإسلام 1: 199.

([15]) المكتبات في الإسلام، ص: 126.

([16]) كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية: 1: 408.

([17]) نفخ الطيب في غصن الأندلس الرطيب. أحمد بن محمد التلمساني المقري. تحقيق د. إحسان عباس 1: 394- 395، بيروت، دار صادر، 1968م.

([18]) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري. آدم متز- ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، 1: 307 مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1957م.

([19]) المصدر السابق: 1: 306.

([20]) المكتبات في الإسلام. ص: 87.

([21]) ظهر الإسلام: 2: 221.

([22]) المصدر السابق: 2: 221.

([23]) معجم الأدباء. 7: 193.

([24]) المكتبات في الإسلام. ص: 93.

([25]) المصدر السابق. ص: 93.

([26]) المصدر السابق. ص: 97.

([27]) الحضارة الإسلامية. 1: 308.

([28]) لمحات في المكتبة والبحث والمصادر. محمد عجاج الخطيب. ص: 45. مؤسسة الرسالة، بيروت، 1995م.

([29]) المكتبات في الإسلام. ص: 128.

([30]) شمس العرب تسطع على الغرب، ص: 384.

([31]) الحضارة الإسلامية : 1: 312. وأنظر لمحات في المكتبة والبحث والمصادر. ص: 42.

([32]) ظهر الإسلام: 1: 220.

([33]) الحضارة الإسلامية: 1: 311- 312.

([34]) المصدر السابق: 1: 311.

([35]) المكتبات في الإسلام. ص: 133.

([36]) التربية والتعليم في الإسلام. سعيد الديوه جي. ص: 63، العراق 1982م.

([37]) التربية والتعليم في الإسلام: ص: 63.

([38]) مكتبات العراق: ص:77.

([39]) التربية والتعليم في الإسلام: ص:63.

([40]) كتاب المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية: 1: 458، 459.

([41]) المصدر السابق. 2: 362، 364.

([42]) المكتبات في الإسلام: ص: 137.

([43]) مكتبات العراق: ص:88.

([44]) لمحات في المكتبة والبحث والمصادر: ص: 43.

([45]) انظر كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط وإلى ثار المعروف بالخطط المقريزية: 1: 362- 404.

([46]) دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدى، ص: 8: 75.

([47]) كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار المعروف بالخطط المقريزية: 2: 405.

([48]) المكتبات في الإسلام: ص: 146.

([49]) انظر شمس العرب تسطع على الغرب، ص: 387.

([50]) مصادر التراث العربي. د. عمر الدقاق. ص: 24. مكتبة دار الشروق، بيروت، 1972م.

([51]) دراسة في مصادر الأدب. الطاهر أحمد مكي. ص: 95. دار المعارف بمصر، 1970م.

المصادر والمراجع

1- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم شمس الدين أبو عبد الله محمد المقدسي. تحقيق مارجوليوث. ليدن، بريل، 1906م.

2- تاريخ الكتاب الإسلامي. د. محمود عباس حموده. دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة 1979م.

3- التربية والتعليم في الإسلام. سعيد الديوه جي. العراق 1982م.

4- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري. آدم متز. ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1957م.

5- دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، دار المعرفة، بيروت.

6- دراسة في مصادر الأدب. د. الطاهر مكي. دار المعارف، بمصر، 1970م.

7- شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، 2013م.
8- ظهر الإسلام. أحمد أمين. الجزء الأول. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1978م.
9- ظهر الإسلام. أحمد أمين. الجزء الثاني. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1977م.
10- الفخري في الآداب السلطانية. ابن القفطي.
11- الفهرست. ابن النديم. المكتبة التجارية، مصر.
12- كتاب الاعتبار- أسامة بن منقذ، وزارة الثقافة، عمان، 2009م.
13- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية. تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة.
14- لمحات في المكتبة والبحث والمصادر. د. محمد عجاج الخطيب. مؤسسة الرسالة بيروت، 1995م.
15- مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، القاهرة، 1958م.
16- مصادر التراث العربي. د. عمر الدقاق. مكتبة دار الشروق، بيروت، 1972م.
17- مكتبات العراق. ميري فتوحي، وزارة الثقافة والإعلام في الجمهورية العراقية، 1986م.
18- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، بيروت، القاهرة، 1962م.
19- المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرها، د. محمد ماهر حمادة، مؤسسة الرسالة بيروت، 1996م.
20- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
21- نفخ الطيب في غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد التلمساني المقري

تحقيق د. إحسان عباس بيروت، دار صادر، 1968م.